النبل ، وكشفت له شكيبة لا عن حاجته الى جسدها فحسب ، بل عن حاجته الانسانية لهـــا ٠

لتمنح ذاته الباحثة عن التكامل ايقاعا متناغما ، يتفجر منه نبـل عطـاء الطبيعة ، وفيض المنح البشري ٠ لقد تبلور المفهوم الانساني الصحيح في ذهنه عبر تماسه الالتحامي المندمج في منطق الكون ونواميسه المعبرة عن سرمديته ٠ هكذا تتصافح اعماق الذات ، مع اعماق الطبيعة ، فتتكشف ملامح العطاء كأنبل قيمة ٠

الانسان فيض عطاء لا ينضب ، عندما لا توصده الضرورة الاجتماعية ، وعندمـــا ننتصر على الضرورة الاجتماعية تمنحنا الطبيعة مفاتيح سرها ٠

انساننا المكبل الذي وأدت انظمة الملكية والقمع ارادته الحرة ، نبله المنبث في انسانيته كقيمة ، سيكون ضحية جرائم لا علاقة عقلانية له فيها ٠ ان عملية الاكتشاف تتوج بشكل حاسم بالهزيمة التي يتلقاها ــ زكريا ــ من شكيبة ٠

لقد هزمت ــ المرسنلي ــ السديمي فيه ، لينتصر المرسنلي التفتح ، فتحت في نفســـه فجوة الحرمان الذي ألفه ، فتفتقت الحياة فيه عن نهم لا يرويه الا الاتحاد الصميمـــي بنبضهـــا ٠

« قهزتني ــ شكيبة ــ هزمتني ، هزمني زوجها ، ولكن هزمني قبله (زخريادس) ابـن اليونانية ، هزمتني الدنيا قبل ان تهزمني شكيبة » (٢٤) ٠

في اعماق الهزيمة يولد ــ المرسنلي ــ الجديد القادر على المواجهة ان حبه لشكيبة نما في ذاته حبا كليا ، اعاد صياغته المثلى ، رفع من درجة احساسه بجدارته على الفعـــل المتوج بالغائية النبيلة ٠ المرأة ــ الحب ــ الحياة ، ثلاثية تفتح العشق ، قادته الى رفض الشكوك التي تحكم الحب الانساني ، « ان المرأة لاعظم من الحب بكثير ، وان الحيـــاة لاعظم من المرأة بكثير ٠ ولا يكون الانسان حيا الا اذا عشق » (٢٥) ٠ عشقه دفعه الى ترجيح مشروعية حبه لشكيبة ، على شرعية حق زوجها فيها ٠

من جوف قمعية الماضي يولد زكريا المستقبل ، وفي تراكم عوامل المصادرة وغربـــة الذات ، يولد الانتماء ، وبالحب تتسامى الذات على فرديتها لتكتسب افاقها الشموليـة ، وفعلهـــا الكلـي ٠

ولذا فان ــ زكريا ــ يرفض التقوقع في الغابة مع ــ شكيبة ــ لينطلق الى المدينة التـي يداهمها الخطر ، وهو يعرف معرفة تامة عجز هؤلاء الذين نصبوا انفسهم سدنة لها ٠ « ماذا اقول أنا ؟ اقول مدينتي شردتني ؟ والرجال ؟ تراهم تشردوا مثلي ؟ منعوهم مـن النزول خوفا على القوارب ؟ أنا أعرف أصحاب القوارب ، واعرف جماعة الميناء ، هؤلاء الذين يتولون العملية من المقهى ، من وراء النراكيل ٠ هم لا يقاتلون الحيتان ، وحتـــى حين تدوخ لا يأمرون بربطها ، ينتظرون ان تموت في ارضها ، او تذهب كما جاءت » (٢٦)٠

هذه المدينة التي شردته ، اراد ان يمد لها لسانه ، ان يشتمها ، لكنها في قلبه ، وهو يرفض ان يكون نذلا ويشمت بها ٠ فسار باتجاهها ٠ « سرت على طول الشاطىء ٠ ببطء اولا ، ثم بعجلة ، ثم ركضت ، وضاعفت ركضي » ٠ (٢٧)

هذه الخاتمة على الرغم من التوافق الروائي الذي يضبط توالي الاحداث ، واحكـــام تسلسلها ، لكنها تحقق نقلة من اطار الواقع المحدد الى اطار الرمز الشامل ٠